الحَدِيثُ الرَّابِعُ

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ][(١)].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «**حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ -: إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**» يُجْمَعُ؛ لِأَنَّ المَوْلُودَ يَتَكَوَّنُ مِنْ الماءَينِ: مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ المرْأَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإِنْسَان: ٢] ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يَعْنِي مخْتَلِطَةً[(٢)]، وَيَقُولُ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطَّارق: ٧]، أَيْ: صُلْبِ الرَّجُلِ، وَتَرَائِبِ المرْأَةِ، فَالمَوْلُودُ يُخْلَقُ مِنْ الماءَينِ: مَاءِ الرَّجُلِ، وَمَاءِ المرْأَةِ.

قَالَ: «**يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً**» نُطْفَة: يَعْنِي نُقْطَةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، (٣٣٣٢)، (٦٥٩٤)، (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب (٢/ ٣٦٧): «الْمَشْجُ والْمَشِجُ والمْشِيج: كل لونين اختلطا، وقيل: هو ما اختلط من حمرة وبياض، وقيل: هوكل شيئين مختلطين، والجمع مشاج».

مَنِيٍّ(١).

قَالَ: «ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً» يَتَحَوَّلُ المَنِيُّ إِلَى دَمٍ، هَذِهِ العَلَقَةُ فِي مُدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، هَذِهِ ثَمَانُونَ يومًا.

قَالَ: «ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً» ثُمَّ يَتَحَوَّلُ مِنَ الدَّمِ إِلَى المُضْغَةِ، يَعْنِي قِطْعَةَ لَحْمٍ فِي مُدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثَالِثَةً، هَذِهِ مَائَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا، وَفِي طَوْرِ المُضْغَةِ تُخْلَقُ أَعْضَاؤُهُ، وَيَتَبَيَّنُ أَنَّهُ جَنِينٌ.

قَالَ: «ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ» يَعْنِي: ثُمَّ فِي الأَرْبَعِينَ الرَّابِعَةِ تمَامَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، أَيْ مِائَة وَعِشْرِينَ يَوْمًا يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِالأَجِنَّةِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

قَالَ: «ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ» الرُّوحُ التِي يَتَحَرَّكُ بِهَا؛ رُوحُ الحَيَاةِ، وَقَدْ عَجَزَ البَشَرُ أَنْ يَعْلَمُوا حَقِيقَةَ هَذِهِ الرُّوح، فَهِيَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَلَا أَحَدَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ هَذِهِ الرُّوحِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَأْتِي بِهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُهُ فِي هَذَا الجَنِينِ، فَيَتَحَرَّكُ وَيَحْيَى بِإِذْنِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا جَاءَ الموْتُ خَرَجَتْ هَذِهِ الرُّوحُ، فَيَهْمَدُ الجِسْمُ وَيَصِيرُ جُثَّةً، فَمَا دَامَتْ فِيهِ الرُّوحُ فَهُوَ حَيٌّ، وَإِذَا خَرَجَتْ فَهَذَا عَلَى قِسْمَيْنِ:

- إِمَّا أَنْ تَخْرُجَ بِالنَّوْمِ، وَهَذِهِ وَفَاةٌ صُغْرَى.
- وَإِمَّا أَنْ تَخْرُجَ بِالمَوْتِ، وَهَذِهِ الوَفَاةُ الكُبْرَى.

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب، مادة (ن ط ف) (٩/ ٣٣٥): «النُّطْفَةُ: هي الماء الصافي، قلَّ أو كثر، والجمع نُطَف ونِطاف، وقد فرق الجوهري بين هذين اللفظين في الجمع فقال: النُّطفة الماء الصافي، والجمع النِّطاف، والنُّطفة ماء الرجل، والجمع نُطَف».

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، هَذِا النَّوْمُ، وَهُوَالوَفَاةُ الصُغْرَى،وَقَالَ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، هَذِهِ الوَفَاةُ الكُبْرَى ﴿رُسُلُنَا﴾ يَعْنِي مَلَائِكَةَ المَوْتِ.

«يَنْفُخُ فِيهِ الرُوحُ» وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، هَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، هَذِهِ الأَرْبَعُونَ الأُوْلَى، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ عَلَقَةً: يَعْنِي دَمًا، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ يَعْنِي قِطْعَةَ لحَمٍ، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نُوح: ١٤] هَذِهِ الأَطْوَارُ التِي تَأْتِي عَلَى الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ: طَوْرُ النُّطْفَةِ، طَوْرُ العَلَقَةِ، طَوْرُ المُضْغَةِ، طَوْرُ العِظَامِ وَاللَّحْمِ، ثُمَّ يَكُونُ إِنْسَانًا، هَذَا خَلْقُ الإِنْسَانِ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾ [الزُّمَر: ٦]، ﴿ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾: ظُلْمَةِ البَطْنِ، وَظُلْمَةِ الرَّحِمِ، وَظُلْمَةِ المشِيمَةِ، الجَنِينُ فِي هَذِهِ الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ.

قَالَ: «وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ» ثُمَّ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ يُؤْمَرُ المَلَكُ بِكَتْبِ أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ كِتَابَةً خَاصَةً بِهَذَا الجَنِينِ، وَهُنَاكَ كِتَابَةٌ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الخَلْقِ، وَهَذِهِ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظِ، أَمَّا هَذِهِ فَهِيَ كِتَابَةٌ خَاصَّةٌ لِكُلِّ جَنِينٍ،

وَهِي مَنْقُولَةٌ مِنَ اللَّوْحِ المحْفُوظِ وَلَيْسَتْ كِتَابَةً جَدِيدَةً.

قَالَ: «بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»، فَلَا يَخْرُجُ الرِّزْقُ عَنْ هَذِهِ الكِتَابَةِ، لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَلَا يَأْخُذُ مِنَ العُمْرِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ العُمْرِ، وَلَا يَعْمَلُ شَيْئًا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِلَّا بِمُوجَبِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُيَسَّرٌ لَهُ، فَلَا يَكُونُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا إِلَّا بِحَسَبِ مَا كُتِبَ لَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ وَفِي بَطْنِ أُمِّهِ.

هَذَا قَلَمُ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، يجْرِي عَلَى العِبَادِ، وَاللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ قَدَّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ مَا يَكُونُ العَبْدُ سَبَبًا فِيهِ، فَإِنْ فَعَلَ الخَيْرَ يَسَّرَهُ اللهُ لِلْخَيْرِ، وَإِنْ فَعَلَ الشَّرَّ يَسَّرَهُ اللهُ لِلشَّرِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، فَالقَدَرُ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ، وَالسَّبَبُ مِنْ عِنْدِ العَبْدِ، قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٨-١٠]، فَيَكُونُ العَبْدُ سَبَبًا فِي شَقَائِهِ أَوْ سَعَادَتِهِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ وَمَقَاصِدِهِ، وَاللهُ تَعَالَى يُقَدِّرُ عَلَى العَبْدِ بِحَسَبِ مَا يَفْعَلُهُ العَبْدُ وَمَا يَقْصِدُهُ.

وَهَذَا هُوَ الجَمْعُ بَيْنَ الأَمْرَينِ: أَنَّ الأَعْمَالَ بِقَدَرِ اللَّـهِ وَأَنَّهَا بِفِعْلِ العَبْدِ، فَالعَبْدُ سَبَبٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ المجْنُونَ وَغَيْرَ العَاقِلِ والمُكْرَهَ وَالنَّاسِي لَا يُؤَاخَذُ؛ لِأَنَّهُ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ كَسْبِهِ وَلَا مِنْ عَمَلِهِ، إِنَّمَا يُؤَاخَذُ البَالِغُ العَاقِلُ المُدْرِكُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الذِي يجْنِي عَلَى نَفْسِهِ أَوْ يَجْنِي لهَا، فَإِمَّا أَنْ يجْنِيَ لهَا خَيْرًا، وَإِمَّا أَنْ يجْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا.

ثُمَّ قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» هَذَا قَسَمٌ، وَلَكِنْ مَنْ هُوَ المقْسِمُ؟

الظَّاهِرُ أَنَّهُ الرَّسُولُ ﷺ فَيَكُونُ هَذَا مِنْ أَصْلِ الحَدِيثِ، وَقِيلَ: إِنَّ المقْسِمَ هُوَ الرَّاوِي ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَيَكُونُ هَذَا مِنْ المدْرَجِ فِي الحَدِيثِ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ، «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» أقسم ﷺ ـ وَهُوَ الصَّادِقُ وَالمصْدُوقُ ـ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ، وَلِأَهَمِيَّةِ هَذَا الأَمْرِ.

قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ**» يَعْنِي الذِي قُدِّر لَهُ، أي: كُتِبَ عَلَيْه «**فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**» فَصَارَ هُوَ السَّبَبَ؛ إِذْ هُوَ الذِي عَمِلَ «**فَيَدْخُلُهَا**».

قَالَ: «**وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**» هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأَعْمَالَ بِالخَوَاتِيمِ، وَأَنْ المعْتَبَرَ مَا يَمُوتُ عَلَيْهِ الإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَلَوْ أَنَّهُ أَفْنَى عُمُرَهُ بِالطَّاعَةِ، ثُمَّ ارْتَدَّ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ إِلَى الكُفْرِ صَارَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ والعِيَاذُ بِاللَّـهِ، أَوْ ظَلَّ عَلَى إِسْلَامِهِ لَكِنَّهُ عَمِلَ عَمَلاً يُوجِبُ دُخُولَهُ وَلَمْ يَكْفُرْ، دَخَلَ النَّارَ إِذَا شَاءَ الله دُخُولَهُ، فَالعِبْرَةُ بِالخَاتِمَةِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ أَفْنَى العَبْدُ عُمُرَهُ بِالكُفْرِ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ عِنْدَ المَوْتِ قَبْلَ أَنْ تُغَرْغِرَ رُوحُهُ دَخَلَ الجَنَّةَ؛ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي للمُسْلِمِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ الدُّعَاءِ بِحُسْنِ خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَغْتَرَّ بِعَمَلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يُخْتَمُ لَهُ بِهِ.

وَعَلَى هَذَا لَا يُحْكَمُ عَلَى إِنْسَانٍ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَوْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِمُوجَبِ أَعْمَالِهِ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ؛ لِأَنَّ هَذَا رَاجِعٌ إِلَى عِلْمِ اللَّـهِ تَعَالَى، وَإِلَى الخَوَاتِيمِ التِي يَمُوتُ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ، وَالخَوَاتِيمُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.